يقظة

قصة للكاتب براين والتون

ترجمة السيدة احسان الموئت

تقع حوادث القصة بعد قرنين تقريبا من عصرنا الحاضر،في عالم يزدحم بمخلوقات آلية يصنعها الانسان في معامله لتعينه على اداء اعماله المعقدة ، وهذه المخلوقات مصورة على هيئة الانسان ، وهي ايضا تسلك سلوكه وتتحدث حديثه ، الا انها بدون روح ، وهي مسيرة بارادته اذ تطيعه طاعة عمياء ، وارادته هي القضاء المبرم الذي لا راد له.

المترجمة

وقفت السيارة بالباب معلنة عودة السيد كلسي الى مسكنه فأجفلت الس لانها لم تكمل بعد اعمال النهار ، وبادرت الى التلفزيون تبعد نشرة الأخبار ، فظهر مذيع اخر يعدد الوسائل التي يقوي بها المرء شخصيته ويكون محبوبا بين الناس . وكان سيدها يؤثر هذه الاحاديث ويصغي اليها باهتمام كبير . وفي مقابل هذا يكره نشرات الاخبار لا سيما تلك التي تشير الى احتمال وقوع غارات جوية على المدينة فان تلك الاخبار على الاخص كانت تحدث لديه اضطرابا ظاهرا تحس به الخادم فتتغافل عنه وتتجاهله . ثم هرعت الى الحمام لتعد الادوات المعقدة التي يستعملها في زينته .

وبلغ سمعها صوت اقدام .. قدمي كلسي .. بعد ثوان سيكون معها هو .. حلمها الذي تجسد في صورة رجل معبود تستظل واياه سقفا واحدا ، ومع ذلك فهو عنها بعيد .. بعيد . يا للالم الدفين .. ألم الحب الذي يغرقك في لجج العذاب وتذوب شوقا الى ان تبوح به ولكنه يبقى سادرا مبتعدا عنك وانى له ان يفهم ما يقوله قلبك ولست الا آلة ميكانيكية ترتدي ملابس امرأة ، وهل من يعلم ان الروح قد تحل في جسد من حديد فتظمأ للحب وتجوع للمودة ؟

تقدم كلسي نحو غرفة الجلوس ، كان طويلا ممشوق القوام حلو القسمات وكان يبدو دائما جميل الهندام رائع الزي . ثم ان ملابس العمل تلائمه وتزيده حسنا في عيني الس . وتحت خيوط الشمس تلتمع خصلات شعره الموجة بلونها الاشقر الذهبي ، بينما تتجمد على شفتيه الرفيعتين ابتسامة لا مغزى لها ! وحين يلحظ الس واقفة هناك تنتظر اوامره بانتباه وصبر وفهم تبدو عليه علائم الراحة لان وجودها يملأ الفراغ المخيف الذي يحسه كلما عاد الى المنزل وحيدا .

اتكأ كلسي على الحائط وراح يلهث وكأنه قد ركض مسافة طويلة هاربا من شيء يرعبه ، ثم قال وهو يغتصب ابتسامة يخفي بها ما يحسه :

ـ هالو ! هالو الس .

ـ هالو يا سيدي ، كيف كان يومك في المكتب ؟

ـ كان بديعا .فلقد قدم المدير للموظفين نجمة فضية بمناسبة نجاحنا في مباراة الاسبوع .

ـ مدهش يا استاذ كلسي !

ـ ليتهم صنعوك قابلة للابتسام يا الس . ان منظرك يشعرني احيانا بالارتباك !

ـ اني سعيدة من اجلك يا سيدي !

فاحنى رأسه ببطء .

لماذا لم يكن كلسي سعيدا ؟ كانت الس تعجب لهذا . انه يملك كل اسباب السعادة ، المال .. المركز .. الاصدقاء .. ثم .. الحب ! ان (كلوريا تونينكورت) تحبه هي ايضا ، وهو مدله بحبها . وكانت كلوريا قادمة هذه الليلة ، وكان على الس ان ترقب كل شيء ، كالعادة ، كان عليها ان تسمع للحب وهي واقفة بجمود في مقصورتها المظلمة مع اشواقها واحزانها ..

ـ الس !..

ـ نعم يا استاذ كلسي !

ـ ان البث التلفزيوني منقطع لمدة عشر دقائق . انهم يسمونها فترة استراحة ويا لها من استراحة ! ألا يفهم هؤلاء الناس ان عشر دقائق من السكوت التام قد تقتل الانسان ؟

احنت الس رأسها موافقة ، ما اغرب الامر .. لقد كان يحدثها هي عن آلام الوحدة !

واتجه كلسي الى الحمام وقال بعصبية ظاهرة :

ـ هل كل شيء معد لزيارة كلوريا ؟

ـ نعم يا سيدي !

ـ حسن .

وفي الحمام راح كلسي يحدق في المرآة التي صنعت على طول قامته فوقفت الس ترقبه بشغف . قالت (المرآة) تنتقده :

ـ استاذ كلسي انك لا تبتسم .

ـ ولكني مبتسم كما ترين .

ـ نعم . ولكنها ابتسامة باهتة !

فمد يده الى شفتيه يبدأ يسحب عضلاتها من جانبي فمه . فقالت المرآة :

ـ ان الناس لا يرتاحون لعبوسك !

وكانت السي تعلم كم يحترم كلسي مرآته هذه فقد كلفته غاليا . اذ كان لها قابلية خاصة تدرك بها متى يكون كلسي محبوبا ومتى لا يكون .

ـ ابتسم تجد الجميع معك ، واعبس تجد نفسك وحيدا !

عند هذا ابتسم كلسي بلهفة ، وكأن حياته قد هددها خطر داهم . قالت المرآة :

ـ هذا احسن !

وتذكرت السي ان الابتسام حرم عليها وعلى امثالها من مخلوقات المصانع لانه من صفات البشر . وما فائدة الضحك لتلك المخلوقات وكل ما عليها ان تخدم الانسان ؟

تخلص كلسي من ملابسه ثم قفز الى الماء . وشعرب السي ان كل ما تكنه من وله قد وقف على شفتيها يريد ان ينفجر في كلمات رقيقة ساذجة غامضة ، فاشاحت بوجهها جانبا ومضت تحدق في الفراغ باصرار كي لا تقول شيئا تندم عليه فيما بعد .

ـ أتعتقدين يا السي ان جلوريا ستحبني الليلة اكثر مما فعلت في لقائنا الاخير ؟

ـ بالتأكيد يا سيدي

كانت السي تعرف كل شيء في حياة مخدومها . وطالما اصغت اليه ، الساعات الطوال ، وهو يفيض في حديث ذلك مع خلانه ، لقد عرفته منذ كان مستخدما صغيرا في المكتب ، وها هو الان موظف مهم تصل اليه اخبار تقدمه يوما بعد يوم . ولم تتخيل السي رجلا محبوبا وكاملا غير كلسي .

ـ ألسي ؟

ـ نعم يا سيدي

ـ هل وجدت تلك الورقة ؟

ودق قلبها دقات متواليات . ترى هل يعلمون ان انسانا ميكانيكيا قد يشعر بالخوف كما يشعر بالحب ؟ هل يدرون ان هذه الفتاة الميكانيكية تقطع ايامها برعب وجزع خشية ان يرسلوها الى المصنع ليعاد وضعها فتعمل في مكان آخر وتجرب حياة اخرى . من يدري ؟ ربما احرقوا روحها في المصنع اذ لا احد يعلم ـ غيرها ـ بان لها روحا مثلهم . ثم هل يدركون ان السي التيعرفت الحب والخوف تعرف ايضا ان تسرق بسبق اصرار وتخفي ما سرقت عن الاعين ؟

ـ اتعني الورقة التي جلبتها من المكتب ؟

ـ نعم هي نفسها .

ـ اني لم اجدها . كلا !

ـ انا واثق من ذاكرتي . لقد جئت بها الى البيت. على اي حال لم يبق امامنا الا ان نعتبرهامفقودة وناتي بغيرها بدلا منها .

لقد سرقتها السي ، واخفتها لديها ، وهي لا تقصد ان تستعملها طبعا كلا فذلك مستحيل وخطر . ولكنها اخفتها كي تجعل لاحلامها موضوعا واقعيا .

كانت السي من الحالات ، فانت حين تقف في مقصورة مظلمة خالية كل ليلة ، وحين تكون منفردا بنفسك صباح مساء وطيلة العمر تصبح الاحلام فنا ضروريا لانها تكون الدرع الذي يقيك الموت والتجمد . كانت الورقة لديها ... في المقصورة ، لقد صارت رفيقتها الاثيرة في ظلامها الطويل ، ومع تلك الرفيعة .. ورقته البيضاء ، استطاعت السي ان تتحمل وحدتها الرهيبة .

ثم راحت تنثر العطر على شعر سيدها وحين انتهى من ذلك فتح فمه فراحت تنظف له اسنانه بعناية حتى انتهت فارتدى ملابسه وهرع الى المرآة .

ـ حسن ؟!

ـ هذا هو المطلوب يا كلسي !

عندهذاتنفس الصعداء وجلس في غرفةالاستقبالمنتظرا حبيبتهجلوريا.

***

كانت جلوريا فتاة دافئة ذهبية الشعر ، وقد ارتدت ثوبا شفافا ضيقا يلتصق بجسدها الفتان فيبرز محاسنه ، وكانت تملك الحب ... الذي يستطيع ان يغرق المحبوب بالسعادة والهناء والاحلام .

اما السي فقد بدأت اول الامر في مراقبة هذا الغرام بفضول ثم تحول الفضول الى حنين لشيء لا تعرفه واخيرا شع في كل جسدها خوف غامض صارت تضطرب له وتفزع منه . لقد تحرك في اعماقها جوع حاد ممزوج بمشاعر يقظة جديدة عليها.. انها تحس بالتفتح وكأنها زهرة يانعة وهذا هو سر رعبها . لذلك حاولت إقناع نفسها بان ليس لها هي علاقة بعاطفة هذين العاشقين ، ولكن وااسفاه . انها خادم البيت وعليها ان تسمع وترى رغما عنها .

كانا جالسين على الاريكه يكادان يلتصقان . وسمعته السي يهمس في اذن جلوريا :

ـ لماذا نؤخر اتحادنا يا حبيبتي ؟

ـ ولكن تعارفنا لم يمض عليه غير اسبوعين ؟

ـ جلوريا ... الا تحبين ان نطلب الترخيص بذلك ؟

ـ لكن يا حبيبي ، ان العجلة لا تليق ، ولن يكون تسرعنا لطيفا !

ـ نعم ، انت على حق . فماذا سيقول الناس عنا ؟!

ووثب جدار هائل بين الحبيبين . لقد شهدته السي واحس به العاشقان ولكنهما راحا يتظاهران بمراقبة ما يعرضه عليهما التلفزيون . وكأن كلا منهما قد نسي وجود صاحبه . ومضت فترة والعاشقان ماضيان في التحديق بستارة التلفزيون والسي تتساءل عما ينتظران .

بل انها كادت تعرف ما ينتظران. ان يتبع كل منهما المظاهر المعهودة والاصول المضبوطة. وكأن ذلك هو كل ما يكرس له الانسان حياته . على ان السي كانت تفهم سلطان تلك القوة العجيبة ، قوة المظاهر والتقاليد وهي التي كتب لها ان توحي للناس دائما بوجود خطأ في هيئتها الخارجية وان تعجز عن صنع اي شيء في سبيل اصلاح ذلك الخطأ .

ـ السي ؟

ـ نعم يا سيدي

ـ غدا هو يوم عطلتك يا السي .

ـ نعم يا استاذ كلسي .

ـ حسن ... يمكنك من الان ان تذهبي الى مقصورتك وتأخذي قسطا من الراحة .

وابتسم لها وهمس في اذنها على حدة :

ـ انها تحبني الليلة اكثر من اي ليلة اخرى . الست تظنين ذلك ؟

ـ نعم ...

ـ اذن فاذهبي وارخي الاتك !

انحنت السي بخفة وسارت مبتعدة . ثم فتحت باب مقصورتها ووقفت هناك بين جدرانها الاربعة في الظلام والصمت . كانت الظلمة بالنسبة لها رفيقا دائميا ، اكتشفت بواسطته نفسها وادركت انها روح

منفردة في هذا العالم الواسع . فلا عجب ان تلوذ بالظلام كلما كربهـا هم او ازعجها امر . اما الان فقد تغيرت نظرتها للاشياء وصارت لا تحتمل الظلام ولا الوحدة . انها يحزان في قلبها حز السكين . وتسابقت الى ذهنها الصور وتكاثفت الافكار . انهم خلقوني ولم يهبوني نشوة الحياة. اجلسوني امام مسرح الحياة احدق فيما يجري عليه دون ان افهم شيئا ، وحين استطعت ان ادرك واعي مثل الناس وجدت الحياة محرمة علي .

وارتعشت وحدقت في الظلام ... الظلام الذي فهمت الآن ماذا يعني بالنسبة للاحياء ولماذا يكرهونه ويخافونه . نعم هنا في الظلام كانت هي لا تتعب من الاحلام . كانت تحلم بكلسي ابدا ، مولاها ومعبودها الجميل ، ولكن احلامها نضجت ومن الواجب ـ لكي لا تتلاشى ـ ان تتحقق ، وهكذا لم يعد في طاقة السن ان تكتفي بالاحلام وحدها . كلا ان الاحلام لم تعد بكافية .

وبهدوء ارتفع الستار في المقصورة الضيقة وركضت السن خارجة الى الفضاء ووقفت تحت السماء العارية . انها تملك تلك الورقة . الورقة التي سرقتها من مخدومها وهي على ثقة من ان احدا لن يشك فيها . ذلك لان الانسان الميكانيكي لا يعرف ان يسرق ، وكيف من لا ارادة ولا روح لديه . ولكن السن التي بعثت فيها الروح لانها عشقت رجلا من البشر اعتادت ان تتعرض لمختلف ضروب الغرائز البشرية خيرها وشرها معا .

وامسكت بالورقة البيضاء ، وركضت الى مكان تعرفه جيدا . وكان الظلام مطبقا ومخيما على المدينة المعرضة للغارات الجوية . لكنها لم تشعر بالخوف لانها رافقت الظلام طيلة حياتها . ذلك الظلام الذي تؤثر عليه الان الموت تحت نيران القنابل . والناس انما يخشون القنابل لانهم لم يعرفوا حلاوة الحياة لا لانهم لم يذوقوا طعم الموت قبلا .

لقد زالت مخاوفها الان ، ولم يعد في انتظارها غير الامال الحلوة ، اذ ليس من شيء اسوأ مما كان حتى هذا اليوم ، ولن يكون الفشل غير اعتراف نهائي بالهزيمة التي كانت قد منيت بها طيلة ايامها السابقة . وهكذا اتخذت السير ولم يكن في الطرقات كلها انسان . كان الناس يتجمعون في غرفهم خلف النوافذ المسدلة الستائر خشية ان يلمح العدو اضواء منازلهم ، وكل ذلك لا يهمها هي . واتجهت نحو العيادة التي كتب عنوانها على ظهر الورقة المسروقة . وحدقت في الرقعة التي بيدها فتراقصت امام عينيها الكلمات التالية :

اصلحني ارجوك ، اجعلني جميلة
اجعلني متعة للناظرين
ولاكن دمية حلوة لا تنسى

ولم يكن من حق السن ان تحمل رقعة كهذه مطالبة باصلاح مظهرها وتجميله ، فمثل هذا الحق لا يمنح الا للفتيات الآليات المهيئات للترحيب بالضيوف في الاحتفالات الكبرى او للعاملات في المحلات التجارية كي يكن متعة للناظرين . اما خدم المنازل من هؤلاء المخلوقات فلم يكن صانعوها يفكرون بغير فائدتها لسيد المنزل ، ولهذا لم يولوا مظاهرها الخارجية اهتماما . وكان ان قسم لالس ان تكون من هذا الصنف نفسه .

كانت عارضات الازياء وبائعات المتاجر من اشد النساء فتنة وسحرا ، وما كان احد ليستطيع ان يعين النساء الحقيقيات ويفصلهن عن النساء الآليات مهما بذل من جهد . والس تعترف بأنها هي نفسها لا تعرف الى هذا التمييز سبيلا . ولهذا كانت مسؤولية ألس بعملها هذا خطيرة جدا. فحرية السلوك لم تكتب لبني جنسها ، كذلك كل الفضائل والرذائل البشرية المترتبة على تلك الحرية . وما على تلك المخلوقات الا ان تؤدي اعمالها كما اريد لها ان تفعل . الا ان السن كانت قد اعتزمت امرا . نعم انها ستدعي الانسانية . لقد كانت عاشقة لواحد من الناس ولن يبادلها ذلك الانسان الحب الا اذا خدع عن حقيقتها .

تلك كانت خطة ألس . كان هذا يوم الاثنين وغدا يوم عطلتها الاسبوعية، ولذلك فان احدا لن يفتقدها قبل صباح الاربعاء . اما ما بعد صباح الاربعاء فانها لن تفكر فيه . فكل ما يهمها هو نجاح الخطة . اما غير ذلك فهو اللاشيء .

وولجت باب العيادة ، ولم ترفع الحسناء الفاتنة الجالسة الى المكتب الرسمي رأسها ، ولكن ألس حدقت فيها . كان مستحيلا ان يعرف المرء اذا كانت هذه السيدة امرأة حقيقية او مجرد آلة صنعت على صورة النساء .

وسجلت الورقة التي تحملها ثم عين لها الرقم وطلب منها ان تنتظر . وشعرت ببرودة تسري في اطرافها وتقبضت اصابعها ، وزاد وجيب قلبها، حين راحت تحلم بما سيحدث لها حين تقابل كلسي بعد اليوم . واخيرا قريء رقمها فراحت تقطع ممرا طويلا على جانبيه ابواب متشابهة لا يحصى لها عدد . وكانت الغرفة المنشودة مربعة الشكل في وسطها منضدة ذات عجلات ، وفوقها مصباح ضخم مخيف الشكل . وتقدم نحوها رجل براق العينين ، ذو صوت يتميز بالحدة .

ـ هكذا اذن . تريدين ان تكوني جميلة جمالا يخطف الابصار !

ـ نعم .

ـ ستكونين كذلك . ارقدي من فضلك وثقي بي . ان الثقة هي اول ما يجب ان توليني اذا شئت ان تبلغي امنيتك .

ـ أحقيقة هذا ؟ هل سأكون ساحرة مثل السيدة الجالسة عند الباب مثلا ؟

ـ ها ها ها ..ياعزيزتي ما اطرفها نكتة! ان السيدة الجالسة هناك هي امرأة حقيقية . انها تستطيع ـ على الاقل ـ ان تقنع الشاكين بذلك . ولكني سأعترف لك بسر محزن . انها انسان بالاسم فقط . ولقد قد قلبها من صخر ، ثم انها ذات طموح يصل الى حد المرض .

ـ ولكنها رائعة وفاتنة !

ـ نعم يا عزيزتي ، ولكن الجمال هو ما يفعله الجمال او ما يفكر به الجمال . اما « ديللا » الحلوة الصغيرة فذات افكار غير جميلة . صدقيني ـ لقد علمت هذا من تجربة محزنة مرت بي .

كان جوليان يحدثها ويداه تعملان في تحسين مظهرها بخفة ومرونة تدلان على مهارته الفائقة .

ـ انك محظوظة اذ ارسلت الى جوليان ، واعدك بأنك سوف تتفتحين عن جمال جذاب بلمساتي هذه . ستكونين اخاذة وذات انوثة كاملة . اتحبين ان تكوني سمراء ؟

ـ كلا ، افضل ان اكون شقراء .

ـ آه ! أتفضلين الشقراوات ؟ انت تبدين مهتمة بالموضوع اهتماما غير معهود .

وتراجع الى الخلف وراح يدرسها بفضول . وضاقت عيناه السوداوان ثم قال برقة :

ـ انت تعلمين بأني درست في اعظم صالونات الجمال في القارة الاوروبية وقد فضلت ان اتخصص في تجميل الفتيات الآليات . لماذا ؟ السبب بسيط . لاني استطيع ان اجعلهن احلى من النساء الحقيقيات .

ـ احلى من النساء ؟

ـ تماما . ان الجمال ينبع من الداخل كما يقول الحكماء . ينبع من الروح والقلب يا عزيزتي ، ولكن الذين يملكون الروح في هذا العصر نادرون . وربما ادى قولي هذا معنى يتضمن ان الآلات هي التي تملك الروح والقلب ، وان البشر قد اضاعوهما ، وكذلك ارجوك الا تعيدي اقوالي هذه على مسمع احد من الناس . انهم يحسبوني شاذا في هذا العصر السخيف . ولكني أؤمن بأن الجمال ينبعث من القوة والتفرد . انه يأتي من الالم ، من القابلية على الشعور بتراجيديا الحياة . اواه .. ولكنه امر محزن بالنسبة لجوليان ، بالنسبة لي يا عزيزتي !

وتثاقل صوته ثم ذهب كالدخان .

ـ وهكذا تريدين ان تكوني شقراء . ولماذا شقراء ؟

ـ أجل شقراء . شقراء طويلة وذات جاذبية طاغية .

قبل جوليان انامله وتلفت حوله وقال :

ـ ارادتك نافذة . اني جوليان اتعهد بأن تكوني كما شئت ان تكوني .

ـ ولكن قل لي .. هل سأستطيع ان احس بأني كائن حقيقي كما يحس الناس ؟

ـ عجبا ! انت دمية كثيرة التساؤل . ماذا يعني كل هذا الامر بالنسبة لك ؟

ـ اخبرني ارجوك . هل سأشعر كما تشعر النساء ؟ اشعر بأني من لحم ودم حين يمسني احد مثلا ؟!

ولكنه لم يجب بل انهمك في تجميل هيئتها . وانفتح درج قريب فلمحت فيه اشكالا مختلفة لاعضاء منوعة من الجسم البشري ، عيون حية ، وصدور طرية ، وحواجب وآذان واصابع الخ.. وكان هناك آلات لماعة واشرطة من البلاستيك واقترب وجهه منها وراحت شفتاه تتحركان بعصبية وهو يهمس في اذنها :

ـ اني أرى ما سيحدث ، ستشعرين شعور المرأة الناضجة تحت لمسات الحب ، وسوف يتحطم قلبي اذ تركتك تفلتين من بين اصابع بجماليون الذي حقق احلامه في تمثاله الجديد . صدقيني يا عزيزتي حين اقول لك بأن ليس من انسان تعذبه الوحدة مثل رجل لم ينس بعد معنى الجمال في عالم انقلب بشعا بعد ان فقد الروح .

وعلمت ألس ان جوليان حرك آلاتها الداخلية ، وفجأة غام الكون في ناظريها وسكتت كل شيء الا افكارها المضطربة . ما اسهل ان نموت ونبعث من جديد ! بل ما اقل الالم . انك اذا كنت مخلوقا آليا استطعت يوميا ان تولد من جديد ، مخلوق ذو هيئة مختلفة تماما عما كنت عليه سابقا . يمكنك ان تختار أي شكل واي حجم ، وحين ينتهي واجبك تستطيع ان تستريح .

اخيرا انتهى جوليان ، ووقفت السي امام المرآة متقطعة الانفاس . وهمس جوليان مذهولا :

ـ يا الهي ! ما اروع هذا ! كنت اعلم بأني عبقري ، ولكن هذا شيء اخر ..ماذا صنعت ؟ اننا نسمع بتماثيل تتحول الى بشر ، ولكن بحق السماء كيف نسمي هذه ؟

ـ انا حلوة ؟

ـ نعم نعم نعم .

ـ حلوة مثل جلوريا ؟

ـ مهما كانت جلوريا هذه فانت احلى منها .

ـ وسوف يحبني ؟

ـ انا احبك يا عزيزتي . انا احبك . ويجب ان اقبلك

فابتسمت له قائلة :

ـ نعم لك ان تقبلني .

وتخيلت ان كلسي هو الذي يقبلها وشعرت بحنين شديد اليه ، ولكن جوليان لعق شفتيه بلسانه وتراجع الى الخلف ثم هز رأسه بعنف ، واداره الى الباب .

ـ علي ان اذهب يا استاذ ، ويجب ان اسرع .

ـ هذا صحيح . عليك بالخروج من هنا . اذهبي بعيدا ، بعيدا عني وعن افكاري .

ـ وهل حقا سأشعر بأني كائن حقيقي كالناس ؟

ـ اصغي الي : انك كائنة وحقيقية اكثر من تلك المرأة التي تدعوني الى شقتها وتؤكد لي بابتسامتها الفارغة وحركاتها المزيفة انها ذات قلب يخفق بالحب . ما الحقيقة ؟ انك انت الحقيقة ، ومع ذلك يا رباه انت لا تستطيعين ان تكوني حقيقية .

واشاح عنها بوجهه وانكأ الى الحائط ، كان في صوته رنين ، ولمحت الخفقان في جانب رقبته .

ـ من الافضل ان تذهبي الان وغدا لن اتذكرك . من يدري ؟ ربما كنت مجنونا اذ أؤمن بأحلامي المفجعة . انهم جميعا اصداف من الجمال الزائف ، وجميع النساء دمى ملونة ، مظاهر خارجية وحسب ، ليس من شيء حقيقي ابدا . وانا ، انا ماذا اصنع طيلة الوقت ؟ لا شيء غير الاحلام . احلم باعادة الجمال والحق الى الارض التعسة . ولكنهما لن يعودا ، لن يعودا .

ـ جوليان !

وبدت منه حركة تدل على الفزع وقال :

ـ ماذا ؟ وكم واحدة مثلك هنا ؟ كلا كلا ، لست استطيع . لست اجد شيئا غير معقول مثل هذا الذي حدث . انه امر سيوردني مورد الهلاك . فاخرجي من هنا ، اخرجي !

مست السي كتفيه بلطف وقالت :

ـ وداعا ، اني أعرف معنى الوحدة .

وحين استدار اليها مرة اخرى كانت الدموع في عينيه فهمس :

ـ اني اصدقك ولكن كيف يمكن ذلك ؟ كيف يكون لديك ما فقداناه نحن البشر ؟

***

عادت ألس الى مسكن كلسي ، وفي الطريق راحت تفكر ، كانت تعلم ان الجمال وحده لا يكفي وعليها ان تعرف كيف تؤثر في الرجل الذي تحب . كيف ينبغي ان تسلك لتجعل نفسها محبوبة في عينيه ومثيرة لخفقان قلبه . وكانت تعرف كل هذا نظريا ، فقد راقبت مناهج التلفزيون اعواما طوالا ، وفي التلفزيون يعلمون الناس ليل نهار كيف يكسبون الاصدقاء ويؤثرون في الناس . كما كانت تعرف كل المواضيع التي تثير الجدل والتي ينبغي عدم اثارتها في الحديث ، وعرفت ايضا كل المواضيع الشيقة التي يحب الناس ان يتحدثوا فيها دائما ، ولكنها شعرت الان بأنها في اشد الحاجة الى التمرين لان خطتها يجب .. يجب ان تنجح ، اذ لن يؤدي فشلها الا الى العودة الى المصنع وتشويه منظرها من جديد !

كان الطريق خاليا ، وقد بدا كل ما في الدنيا وكأنه ينتظر انفجارا مريعا . ينتظر الشيء الذي تنتظره ، هي بكل تلك اللهفة وذلك الحنين المقرون بالارتباك والجزع . ولكنها لم تحس بالخوف من احتمال وقوع

الغارات الجوية في تلك الليلة ، لقد كان للناس مئات الاشياء التي تفزعهم وكان اولها الخوف من الحرب ، الحرب مع الاسيويين . تلك الحرب التي ينتظرونها برعب دائم وتوقع اليم ، ومع ذلك فانها لم تقع ابدا .

وطرقت باب كلسي فبلغها وقع خطواته ، ثم فتح الباب فارتسم ظله الطويل على الجدار ثم بدا امامها ببدلته الوردية وشعره المائج ، وكان وجهه ما زال متأثرا بضوء التلفزيون ،ولكن علائم الانتباه ظهرت عليه حالما رأى الفاتنة الواقفة عند بابه تبتسم له بظرف وادب .

وابتسم لها فالتقت البسمتان .

ـ هالو . اني انيتا ستار ، ابحث عن رقم ٣٠٧٤ ـ ١٦ ، طريق كارنيجي ..

ـ هل ضللت السبيل ؟

ـ اظن ذلك .

وساورها الامل في ان يدعوها الى بيته وامتلأت نفسها غبطة . ها هي فريسة من كلسي اخيرا بمظهرها النسوي وانوثتها البادية ، ومن الان سيعلم ما تكنه له من هوى ، أوه كلا ، يا لي من حمقاء . كيف اخبره ؟ سيفاجأ ويزدريني . لا ، لن احدثه بشيء ، وسوف يعلم في الوقت المناسب

ـ هذا هو طريق كارنيجي .

قال هذا وهو يحدق في وجهها ثم التمعت عيناه حين لحظ رشاقتها وول قوامها ، فراح يعين لها الطريق ويرشدها اليه بينما واصلت عيناه دراسة هيئتها باهتمام مؤدب .

فاقتربت منه الى ان احست بحرارة انفاسه وقالت فجأة :

ـ ما هذا ؟ انت السيد كلسي فيما اظن .

فعرضت بسمته ، وكأن معرفتها له ارضت كبرياءه .

ـ ولكن كيف عرفت ذلك يا آنسة ستار ؟

ـ لقد حدثتني صديقتي الانسة ديفيز عنك . انها تعمل في مكتبك وهي شديدة الاعجاب بك وقد ارتني صورة لك .

ـ ما اجملها مصادفة يا آنسة !

ـ أليس كذلك ؟

ـ حسن اذن ، الا تفضلين الاستراحة قليلا قبل مواصلة الطريق ؟ اننا نراقب التلفزيون .

واومأت بالقبول . يا الله ! ما كان اسرع جريان الحوادث ! لقد تم كل شيء بدون مشقة .

***

وقفت جلوريا تونينكورت حين دخول كلسي والس فقال يقدمها لحبيبته :

ـ جلوريا ، ها هي الانسة انيتا ستار احدى الصديقات العزيزات .

واحست الس بوجود خطأ ما ، خطأ تشف عنه البسمات وكلمات الترحيب ، خطأ خطير ومخيف لم تشعر به ابدا .. حين كانت مجرد خادم كلسي ولكنه الان ينتصب كعملاق في مكان ما بين هؤلاء الثلاثة .

وبدأ الثلاثة يبتسمون ، واحضر رب البيت ثلاثة اقداح ، فشربت أنخاب السعادة ، وكأن السعادة هي الشيء الوحيد الذي تهبه الحياة للبشر. كان على جلوريا ان تصنع الشيء المناسب مهما آلمها ذلك ، وهذا من حسن حظها . وجرى الحديث بروح رياضية عالية ، الا ان جلوريا سرعان ما هبت واقفة وقد بان عليها الكلال رغم بسماتها وقالت :

ـ اني افضل الذهاب يا كلسي ، اذ يبدو لي ان لديكما شيئا لا يخص غيركما . والحق اني مغتبطة من اجلكما .

ولم يبد على كلسي انه سمع شيئا مما قالته جلوريا ، كان نظره عالقا بألس حتى كأن جلوريا لم تكن موجودة على الاطلاق ولكنه قال وهو ما زال محدقا في الس :

ـ ارجوك يا جلوريا الا تذهبي !

ـ انت لطيف جدا حين تصر على بقائي ، ولكن الوقت متأخر .

خلال ذلك كانت ألس تحدث نفسها (اعرف تماما يا صديقتي كيف تشعرين ، فهناك ، بعيدا بعيدا في اعماق نفسك ، شيء كالمرض يقتلك حتى الموت ، ولكنك مع ذلك تبتسمين . لشد ما ارثي لك !)

تحركت جلوريا نحو الباب فبادر كلسي يفتحه لها وعندئذ همست له :

ـ ارجو لكما السعادة ، ويبدو ان كلا منكما خلق لصاحبه .

قالت ذلك وخرجت ..

اغلق كلسي الباب وعاد الى جوار ألس . قال :

ـ انها فتاة عجيبة رياضية الخلق !

ـ نعم ما الطفها !

ولكن ذلك لم يكن حقيقيا ، فألس كانت تعرف ان جلوريا حزينة كاسفة البال لفقد حبيبها . وها قد ذهبت جلوريا الى الابد ، ومعها ذهبت ليالي الحب التي قضتها مع كلسي تحت هذا السقف نفسه .

وسألها ان تجلس الى المتكأ ثم جلس الى جانبها وقرب وجهه من وجهها :

ـ يبدو لي اني عرفتك منذ سنوات وسنوات .

ها قد تم كل شيء بسهولة غريبة ، ولم يعد امامها الا ان تبوح له .. للسامر اللطيف المعبود .. وعند هذا نسيت ألس الدنيا وتلقته بذراعيها الظامئتين وغطت وجهه بقبلاتها . وسيطرت عليها عاطفتها حتى احست بآلاتها الداخلية تسرع وتسرع وتدق كما يدق القلب البشري . وقبلت وجنتيه ثم اقتربت شفتاها من شفتيه ، ولكنه راح ينتهد ويرتعد بشدة ، وحين مد ذراعيه اليها يريد ان يحتضنها ، رأته يدفعها بعيدا عنه وهو يرتجف وقد ابيض وجهه فهمست بقلق :

ـ ما بك يا حبيبي ؟

ـ اني .. لا .. لا اعلم . ما هذا ؟ ان الامر لم يكن هكذا ؟

ـ الحب . اعني انت . اني لا افهم شيئا .

ـ انه الحب الحقيقي يا حبيبي ، الحب الاكبر والاوحد . ذلك هو الفرق . أليس كذلك ؟

ـ الحب الحقيقي ؟ اني لم اجرب مثل هذا الشعور من قبل ابدا . وربما كان هذا الحب اكثر مما احتمل . لست ادري .

وكان وجهه قد شحب شحوبا عظيما وبدأ يتكلم بصوت اجش مرتعد، وانسل من ذراعيها بخوف . وخيل الى الس بأنها تفقده . لقد احس بما هناك من خطأ ، بأنها ليست امرأة من البشر ، بأنها ليست من بنات جنسه وهمست بتوسل :

ـ كلا .. ارجوك .

وهرعت اليه بشوق واحتضنته ، ولكنه اخافها بتوتره الشديد .. فأحست بأنها على وشك البكاء ، ولكن هيهات .. فما وهبت بنات جنسها الدموع ... وهمست مرة اخرى :

ـ ارجوك ارجوك ..

ـ اصغي الي . هذا لا يحتمل . انت ترعبينني . لماذا ؟ اني اريد ان افهم ..

ـ كيف تخاف الحب ؟

ـ الحب ؟ هذا ليس حبا . انه يشبه الغضب ، ولم اعرف كل حياتي شعورا يشبهه .

ـ فلتعلم الان .. لتعلم الان ..

واغلق عينيه وارتعشت شفتاه وهمس :

ـ لقد شعرت بأني اموت .

وفجأة التفت الى التلفزيون وراح يحدق فيه ، فشهق وبلع ريقه فالتفتت السن الى ستار التلفزيون ، واذا به ابيض اللون تلتمع فيه الامواج الضوئية ولا شيء غيرها . وعلا صوت رجل لكن دون ان يبدو له شكل:

ـ نظرا لاحتمال وقوع غارة جوية بعد قليل فاننا سنتوقف عن البث.

عندئذ تحول وجه كلسي الى لون الرماد وهمس بجزع ..

ـ غارة جوية في هذه المدينة !

فمست السن كتفه بلطف وقالت :

ـ لا بأس يا حبيبي ، كن مطمئنا !

ولكن الانوار كلها انطفأت في لحظة واحدة وعلت صفارات الانذار تملأ الجو هولا .. فارتفع نشيج كلسي ، وراح يعول ويبكي كالفتيات الصغيرات . ولم يفد معه حنان السن التي اخذتها الدهشة وتحيرت فيما تصنعه له . وعاد الصوت في التلفزيون يقول :

ـ ستبقى المدينة في الظلام مدة ساعتين ، وعلى الجميع ان يبادروا الى الملاجيء ..

وهمس كلسي بجزع بالغ :

ـ ساعتان ! ساعتان !

وحين ارادت السن ان تطمئنه لم تجده . وانما سمعت صوت ارتطامه بالاثاث حين راح يتخبط في الظلام باحثا عن طريق نحو الملجأ . فتبعته بهدوء وثبات ، وحين وجدته في اعماق السلم المؤدي الى الملجأ ، كان ينتحب ويهمس بدون توقف :

ـ ساعتان ، ساعتان ، ساعتان ..

ففهمت من اسلوبه انه لا يعني ساعتين من الوقت وانما يقصد بالساعتين الابدية نفسها !

ولم تستطع السن ان تفهم لجزعه كله معنى ، فقد وقفت الساعات الطوال في مقصورتها المظلمة وعملت طيلة حياتها وحيدة ، وهي تستطيع ان تفهم الشعور بالوحدة ذاك الذي ينشأ عند المحبين البعيدين عن احبابهم اما هذا الفزع من مجرد غارة جوية ـ قد تكون وهمية ـ فانها لم تدرك له سرا ابدا .

ثم ادركت السن امرا اخر ، ان كلسي نفسه انسان اجوف ، انه يخاف من الفراغ بل الوحشة التي في أعماق نفسه ، انه لا يستطيع ان يعيش مع نفسه ، ذلك هو سره .. نعم يا السن: لقد كنت واهمة ، هذا الرجل ليس هو كلسي الذي حلمت به طويلا طويلا . لقد خلقته انت لنفسك ، حين كنت وحيدة قليلة الخبرة بالحياة ، كان كلسي موضوعك الذي ابتدعته من العدم لكي تسدي به جوع قلبك الظمآن للحب . اما كلسي الرجل فهو مخلوق اجوف ، وهو يشعر بذلك ويخشاه ايضا . انه يخشى ان ينكشف الستار عن اسرار قلبه الهياب . لقد فهمت السن كل ذلك في لحظة صغيرة واحدة ، ومن يدري فلعلها كانت تعرفه من قبل ولكنها لم تصرح به الا الان .

وعاد صوت كلسي المرتجف يهمس دون انقطاع :

ـ ساعتان ، ساعتان !

ـ ولكني اهواك ، وكلانا مع صاحبه ، نستطيع ان نتحدث .

ـ ليس من تلفزيون ، ولا احد يدخل علينا ، لا نستطيع ان نخرج الى الهواء الطلق ، ويلاه ، ساعتان ايضا !

وسكت قليلا ثم صرخ بأعلى صوته كالمجنون :

ـ فلنتحدث .. تحدثي الي بأي شيء ..

ولكن الاشياء السخيفة كانت قد انتهت ، ولم تتذكر السن اي موضوع يمكن التحدث به معه . بل انها لم تعد تتمنى حتى ان تضم هذا الرجل الى صدرها ، لم يعد لديها مثل هذه الرغبة ، انه مخلوق غريب لا صلة لها به .

وادركت ايضا ان كلسي كان وحيدا على هذه الصورة حتى مع جلوريا كان وحيدا وحدة مطلقة بعيدا عن العالم كله . نعم ذلك هو سر فزعه من الظلام والوحدة . انه لايملك ما يمكن ان يشارك العالم فيه حتى ينسجم معه ويزول شعوره بالخوف من الوحدة .

انه لا يملك الحب .

وعلى حين غرة ، حاول كلسي ان يهرب الى خارج الملجأ دون وعي فجذبته الى الداخل بقوة فارتمى على الارض ينشج :

ـ اريد ان اخرج ، ان اذهب الى ملجأ مملوء بالناس

ـ حسن ، فلنذهب الى الملجأ الكبير .

واتجها اليه ولكنهما لما وصلا الى اعلى السلم ودخلا غرفة الجلوس في مسكن كلسي ، عاد الضوء واشتغل جهاز التلفزيون من جديد ، فقد انتهت الغارة الجوية وكانت غارة وهمية في الواقع .

وبهدوء تناولت السن مسكنا وجعلت كلسي يبتلعه ثم صحبته الى مرقده وسرعان ما غط في النوم .

اما هي فعادت الى مقصورتها المظلمة تنتظر قدوم صباح الاربعاء . لقد كان لديها وقت طويل يكفي للتفكير في الامور تفكيرا جديدا . وهبط عليها سلام مفاجيء وعلمت انها لم تعد تأبه لما يمكن ان يحدث لها بعد الان . انها كائن قوي مسؤول عن نفسه . ومثلها يستطيع ان يتلقى كل ما يقع عليه دون مبالاة ودون خوف .

حين ايقظت السن كلسي صباح الاربعاء واخبرته بحقيقة الانسة انيتا ستار وبانها لم تكن الاها ، طلب منها ان تكف عن المزاح . ولكنها لما حدثته عن الرقعة المسروقة واقنعته بما حدث فوجيء مفاجأة اليمة وهرول الى عيادة اصلاح الدمى الالية وراح يحدثهم بالامر وهو يرتعد دهشة وفرقا . واخيرا وعدوه بنقلها الى مكان بعيد عنه .

ولما عاد اليها كان الخوف منها مرتسما على وجهه ، وقال لها وهو غارق في التفكير :

ـ اني لا أكاد افهم شيئا ، ليس من انسان طلب اليك ان تفعلي ذلك ، فكيف استطعت ان تقومي بكل ما قمت به ؟ كيف كيف ؟؟

حالت السن ان تجيب ولكنها آثرت السكوت اذ لم يعد هناك ما يقال . وعاد الى الحديث :

ـ ان الدمى الالية تتعب من العمل احيانا فتحتاج الى بعض الاصلاح في المعمل . ولكن دمية واحدة لا تستطيع ان تقوم بكل العمل الذي صنعته انت ، فكيف كيف ؟؟

ولكن السن لم تحرك شفتيها ، وانما اجابته مع نفسها :

ـ لقد صنعت كل ذلك لاني كنت وحيدة ، وفي حاجة الى الحب .

وابتسمت اذ عاد في طوقها الان ان تبتسم .

وبلغ سمعها صوت عجلات العربة التي ستقلها الى المصنع وسمعت الخطوات المقتربة منها ولكنها لم تبال . كانت قوية الى حد اللامبالاة .

صراع مع الظلام

من تأليف محمد منير آل ياسين المحامي

منشورات الرسالة الجديدة ٩٦ صفحة ـ مطبعة الجامعة ـ بغداد

*

المعروف عن الاستاذ محمو منير آل ياسين المحامي انه دائب النشاط والانتاج في مجالات الفن والادب فمنذ ان الفت الحكومة امتياز مجلته الادبية الكبرى (الرسالة الجديدة) في سنة ١٩٥٣ والتي ساهم في تحريرها نخبة من احسن ادباء العروبة قال الجميع ان هذه الضربة ستكون كفيلة بالقضاء عليه ادبيا .. الا انهم فوجئوا بنشاطات جديدة له في ميادين اخرى غير ميدان الصحافة . فقد عاد الى الكتابة للاذاعة في كل مكان .. فالمعروف عنه انه كاتب مسرحي واذاعي من الطراز الاول ... يشهد له بذلك آلاف المستمعين الذين استمتعوا برواياته الاذاعية الشيقة الطريفة . واخذ المذياع يردد اسمه من جديد فيعيد للاذهان قصة كفاح شاب عصامي طموح وهب شبابه وروحه للفن ولخدمة الوطن .

وكان اخر عمل فني ادبي له هو اصداره مسرحية (صراع مع الظلام) التي نحن بصدد نقدها الآن. واول ما يلفت نظر القارىء هو عنوان المسرحية البليغ ، فقد اثار هذا العنوان تساؤل الكثيرين .. لاول وهلة .. وانا منهم فقد قلت لماذا لم يسمها صراع في الظلام ؟.. ولكني بعد ان قرات المسرحية واستوعبتها شهدت له بالتوفيق والابداع في اختيار هذا العنوان بالذات .

ان مسرحية (صراع مع الظلام) تعني الصراع مع الجهل والرجعية والظلم والانانية ... صراع الحق مع الباطل .. صراع النور مع الظلام ولعله استوحى العنوان من صراعه هو مع الظلام . فقد لقي في حياته الادبية والفنية الوانا شتى من المكافحة والمقاومة والحسد والعدوان ... ولكن هل رضخ هو لذلك ؟.. هل نكس راسه امام تلك الاعاصير ؟ هذا ما تجيبنا عنه هذه المسرحية الكبرى التي لم يفز المسرح العربي باجرا منها واصدق .

انها تصور كفاح المعلم في سبيل خلق الجيل الجديد ... المعلم العربي الذي تلقى على عاتقه مسؤوليات وطنية كبرى بالاضافة الى مسؤولية مكافحة الجهل ... مسؤوليات تهيئة الجيل الجديد للنهوض ببلاده من كبوتها وتحريرها من نير الذل والاستعباد .

لقد تمثلت هذه الشخصية الحية الرائعة في ـ خالد ـ ذلك الشاب الطموح الذي يصر على حرمان نفسه من كل مستقبل مرموق في سبيل ان يكون معلما ابتدائيا ... لانه كان يعتقد ان مجال خدمة الامة خدمة حقيقية هو تعليم الجيل الجديد في اولى مراحله الدراسية لانه يكون آنذاك لينا سهل التكييف وفق ما يرسمه له المعلم من توجيه وارشاد .

واروع من ذلك هو رفضه التعيين في العاصمة واصراره على التعيين في الريف حيث يكمن الجهل والفقر والمرض وحيث تتمثل افظع المآسي من حياتنا الاجتماعية المتطورة ..

وهناك في الريف تتكتل ضده قوى الرجعية كلها ... يغذيها رجال الاقطاع الذين يرون في كفاح خالد وافكاره خطرا يتهدد مصالحهم واطماعهم فيحاولون بكل ما لديهم من قوى ان يحوكوا الدسائس والمؤامرات للقضاء عليه الا ان ايمانه برسالته الانسانية الكبرى يمده بقوى روحية جبارة تعينه على الصمود في وجه الاعاصير ثابت العزم قوي الجنان ... حتى ينتصر في النهاية ذلك الانتصار العظيم .

لقد جمع المؤلف في مسرحيته بين الواقعية والمثالية . فقد رسم لنا فيها نموذجا كاملا للريف العراقي المثالي الكامل .. وهذا النموذج لم يتحقق الى الان بالرغم من الجهود التي تبذلها المؤسسات الاجتماعية المختصة برفع مستوى الارياف .. .

نعم لم تعد السن تعبأ باحد حتى ولا بكلسي معبودها القديم . كان هناك جوليان الذي وجدته اكثر فهما واعمق حرية من كلسي . ولكن نظرتها للناس قد تحولت تحولا خطيرا وما عاد للجنس البشري اطلاقا سلطان عليها.

ان البشر يملأون الطرقات والمنازل وتجدهم في كل ركن ، يسيرون ويتحدثون ويضحكون فيخيل اليك ، انهم يحيون الحياة كاملة غير منقوصه ولكنك تعرف اخيرا انهم جميعا يسيرون وهم اموات . انهم اموات .

وابتسمت بنشوة وارتياح ووقفت تنتظر مقدمهم فبدا عليهم التهيب والخوف .

ووددت ان تصيح بهم قائلة :

ـ ليس في ما يستوجب فزعكم ايها السادة . وانما الفزع في انفسكم، في ذواتكم الخاوية ، انكم تخشون الحياة وتجزعون من انتصار الزمان عليكم ، اما انا فلقد عبرت الظلمات وتركتها لكم . اني اعرف مصيري واعرف نفسي ، فانا في النور وانتم ما تزالون في الظلام .

انا اعيش ، وسوف اعيش ..

وامتدت احدى الايدي الى الصمام الذي يحرك الآتها ..

بغداد ترجمتها بتصرف **احسان الملائكة**